الفقـــراء

LES PAUVRES GENS

(بقية المنشور على صفحة ٨٠٢)

فإذا ما اعتلج فى صدرها الهم ، هبت مذعورة تجرى خلال الصخور وهى تسأل الأمواج ضارعة : « رديهم علىّ ! ! ... »

ولكن وا أسفاه ! ماذا عسى أن يرد البحر الذى لا يبرح فى تقلب واضطراب ، على الفكر الذى لا ينفك فى تشتت واكتئاب ؟

* * *

كانت « جانى » أشد هماً وغماً من ترائبها جميعاً ؛ لأن زوجها وحيد فى جوف هذا الليل الشديد وتحت هذا الكفن الأسود ؛ وأطفاله لا يزالون صغاراً فلا وزر له فيهم ولا عون !

أيتها الأم ! إنك تقولين اليوم وأنت ترين أباهم وحيداً : ليتهم كانوا كباراً ! ولكنك ستقولين غداً عندما ترينهم يذهبون مع الأب : ليتهم كانوا صغاراً ! »

— ٥ —

أخذت « جانى » مصباحها ورداءها وذهبت ترى : هل عاد الزوج ، وهل سكن البحر ، وهل أشرق الصبح ، وهل ومض النور فى سارية الإشارة ؟

ها هى ذى تسرع الخطى فى الطريق ، ولكن هواء الصبح لم يهب ، وضياء الفجر لم يلح . وكانت السماء تمطر ؛ ولا تجد أشد ظلاماً من مطر الصباح ! كأنما كان النهار يضطرب مخافة أن يُوجَد ، وكأنما كان الفجر يبكى كالطفل ساعة يُولد !

* * *

وعلى حين فجأة لاح لعينيها وهما تتحسسان الطريق كوخ واهى الدعائم قائم الأعماق فلا نور ولا نار . له باب لا يستقر من الريح ، وعليه سقف لا يسكن من القلق ، ومن فوقه تعبث الريح الصرصر بهشيم من القش الأصفر الكريه المنظر ؛ فقالت « جانى » : « عجيب ! ما لى لم أفكر فى هذه الأرملة الفقيرة التى عثر عليها زوجها ذات يوم وهى وحدها تكابد غصص المرض ؟ ! لا بد أن أعودها لأنظر ما حالها ! »

قرعت جانى الباب وتسمعت فلم يجبها أحد . فقالت لنفسها وهى تنتفض من البرد : « لا تزال مريضة ؛ وأولادها ، لا ريب ، يقاسون سوء التغذية ! لم يبق للمسكينة غير طفلين ! » ثم طرقت الباب ثانية ونادت : يا جارتى ! يا جارتى ! فلم يرد عليها أحد . فقالت جانى : لقد أثقلها النوم فلا بد من تكرار الطرق ومعاودة النداء . ولكن الباب فى هذه اللحظة أدركته نفحة من عناية الله فانفتح من ذات نفسه !

— ٦ —

دخلت جانى الكوخ المظلم الصامت ونور مصباحها يسعى بين يديها ، فوجدت سقفه كالغربال لا يمسك المطر ، ورأت فى صدره امرأة هامدة لا تَبَض بها ولا حس ! قدماها عاريتان ، وعيناها مظلمتان ، وهيئتها فظيعة . كانت هذه هى الأم المرحة التى قضت حياتها الأولى فى بهجة وقوة ، فلم تزل الأيام والآلام تعرُكها وتبريها حتى لم يبق منها غير هذا الهيكل . كانت إحدى ذراعيها قد تدلت على جانب الفراش الخشن ، وكان فمها المفتور ينبعث منه الرعب بعد أن لفظ الروح وهى تصيح صيحة الموت إذا سمع نداء الأبد

وعلى مقربة من سرير الميتة كان طفلان ذكر وأنثى ينامان باسمين فى مهد واحد . وكانت الأم حين أحست دبيب المنية قد وضعت معطفها على قدميهما ، وثوبها على جسميهما ، حتى يحسا الدفء فى الساعة التى تسرى فى جثمانها برودة الموت !

— ٧ —

كان الطفلان ينامان ملء الجفون فى مهدهما النابى القلق ؛ وكان المطر يهدر خارج الكوخ هدير السيل ، والسقف العتيق يُساقط الحين بعد الحين على جبين الميتة قطرة ، فتسيل على خدها الشاحب فتكون عَبرة ؛ وكان الموج يصلصل كناقوس الخطر ، والميتة تتسمع فى الظلام والسكون فى هيئة الأبله ؛ لأن الجسم متى فارقته الروح بدت عليه حال الباحث عنها . وكأنك تسمع هذا الحوار بين الفم الذابل والعين الحزينة :

تقول العين للفم : ماذا صنعت بزفراتك ؟

ويقول الفم للعين : وماذا صنعتِ أنتِ بنظراتك ؟

* * *

وا أسفاه ! عيشوا أيها الناس وأحبوا ، وارقصوا ، واضحكوا ، واقطفوا الزهور ، وارشفوا الخمور ، واحرقوا القلوب ، وأفرغوا الكؤوس ، فإن الله قد جعل مآل كل لذة إلى القبر ، كما جعل مآل كل نهر إلى البحر !

— ٨ —

ماذا صنعت جانى عند الأرملة الميتة ؟ ماذا تحمل تحت ردائها الضافى وهى تمشى ؟ لماذا يخفق قلبها وتسرع خطاها ؟ لماذا تعدو فى الطريق ولا تجرؤ أن تلتفت ؟ أى شىء تضمه فى الظلام خفية على السرير ؟ ليت شعرى ماذا سرقت جانى ؟

— ٩ —

عادت جانى بما تحمل إلى بيتها ، ثم وضعت كرسياً بجانب السرير وجلست عليه ساهمة الوجه كأنما تعانى وخز الضمير . ثم ضاق ذرعها بما تجد فألقت جبينها على حافة السرير وأخذت تغمغم بهذه الكلمات المتقطعة :

واحسرتاه عليك يا زوجى المسكين ! رباه ! ماذا عسى أن يقول ؟ ألا يكفيه ما يحمل من الهم ؟ وهل فضل كدحه المرهق عن قوت أطفاله الصغار حتى أثقل كاهله بهذا العبء الجديد ؟

أهو هذا ؟ كلا ! لا شىء . لئن ضربنى زوجى لأقولن له : حسناً فعلت

أهو هذا ؟ كلا ! حسن ! إن الباب يتحرك كأن إنساناً دخل ، ولكن لا

رباه ! مالى أصبحت الآن أخشى عودة زوجى ؟

ثم اعتراها الوجوم فظلت ساهمة تغوص فى الهم كما يغوص الغريق فى اللجة ؛ ثم فقدت الشعور بالدنيا فلم تسمع فى الخارج حركة ولا نجة

* * *

انفتح الباب فجأة فانسكب فى الكوخ شعاع أبيض ، ثم لاح الصياد على العتبة يجر شبكته وهى تقطر من البلل ويقول بلهجة المبتهج : تلك مهنة البحر !

— ١٠ —

رأت جانى زوجها فهتفت به وعانقته عناق الحبيب . وكان الزوج فى أثناء ذلك جذلان يقول : هأنذا يا امرأتى ! ثم ينعكس على جبينه الذى يضيئه نور الكانون ، قلبه المسرور الطيب الذى يضيئه حب جانى

— كيف كان الجو ؟ — كان قاسياً . وكيف كان الصيد ؟

— كان سيئاً ! ومع ذلك أجدنى قد وجدت السرور والراحة حين قبلتك !

لقد خرقت شباكى ولم أصد شيئاً ! ما كان أهول ذلك الجو ! لقد كان يخيل إلىّ أن الشيطان ينفخ فى الهواء ، وأن السفينة المضطربة توشك أن ترقد فى الماء !

— وأنت ماذا صنعت فى هذا الجو القاسى ؟

فاستقلت الزعدة جانى وقالت :

— أنا ؟ لا شىء . لقد كنت أخيط كالعادة ؛ وكنت أسمع البحر يزمجر كالرعد فتدركنى روعة شديدة

— أجل إن الشتاء شديد ؛ ولكن الزمن كله فى حياتنا سواء !

ثم قالت جانى وهى تضطرب اضطراب من فعل شراً :

— إن جارتنا الأرملة قد ماتت . ولعل موتها كان فى عشية الأمس بعد أن خرجت أنت . لقد تركت طفلين صغيرين : غليوم ومادلين . ذاك يحبو ولا يمشى ، وتلك تغمغم ولا تبين . لشد ما كابدت هذه المرأة الصالحة برحاء الهم والفقر !

* * *

فلما سمع الرجل هذا الخبر اتخذ هيئة الجد ورمى بقبعته المبللة فى كسر الكوخ ثم قال وهو يحك بأظفاره جلدة رأسه :

— يا للشيطان ! إن لنا خمسة أطفال فهل يصبحون سبعة ؟ إننا فى هذا الفصل الشديد نقضى بعض أيامنا على الحساء فماذا نصنع ؟ ليس الذنب ذنبى ؛ إنما هى مشيئة الله . إن من الحوادث ما يحار فى تعليله الفكر . لماذا حرم الله هذين الطفلين أمهما وهما فى هذه السن وهذه الحاجة ؟ لا جرم أن أعمال الله لحكمة ، ولكنها كثيراً ما تخفى على غير البصير

اذهبى يا جانى فأتى بهما . إنى لأخشى أن يستيقظا فيستشعرا الخوف من وجودهما وحيدين مع الميتة

إيتى بهما يا جانى نخلطهما بأبنائنا ، ونشركهما فى سرائنا ، وأنا واثق أن الله سبحانه وتعالى سيرزقنا من حيث لا نحتسب ، ويبارك سيدنا فنكتسب أكثر مما كنا نكتسب

ماذا بك يا جانى ! أهذا يغضبك ؟ مالك لا تسرعين إلى تنفيذ رغبتى كالعادة !

فلم يكن جواب جانى إلا أن كبشت الستار وقالت متهللة : « هاها ذان ! ! »

احمد حسن الزيات

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)